

التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة التاسعة عشر: الجبهة المعارضة



التأصيل الإسلامي؛ الجبهة المعارضة.. المحاضرة التاسعة عشر من سلسلة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي بمدينة مشهد قبل 46 سنة

الجبهة المعارضة

الاثنين 20 رمضان المبارك 1394 هجرية

15/7/1353 هجرية شمسية

ذكرنا أن النبوة نهضة اجتماعية وقلنا أن من مبادئ هذه النهضة: رفض التمييز الطبقي الاجتماعي، أي رفض تقسيم المجتمع إلى طبقة الضعفاء والعبيد والفقراء والمحرومين من جهة، وطبقة المقتدرين والمتغترسين والمنعمين من جهة أخرى. فلا وجود لهذا التقسيم في المجتمع الذي تدعو إليه النبوة.

ليس في قاموس الإسلام، بل في الأديان الإلهية أجمع أن لا يستطيع إنسان بسبب ضعفه أن يأخذ حقه. ذلك ما ليس له مكانة في إطار الحكومة الإسلامية والجهاز التوحيدي والإلهي: «لن تقدّس أمة لا يؤخذ فيها للضعيف حقه غير مُتّعتع» [1] أي بدون تلثم، أي بدون خجل وبدون الشعور بالدونية. جميع أفراد المجتمع أعضاء جسد واحد ودونما تمييز. الحاكم الإسلامي مثل أمير المؤمنين (عليه السلام) في المجتمع الإسلامي له من الحق والحقوق ما لأي فرد من أفراد المجتمع.

أكبر مسؤول في الدولة لا يستطيع في المجتمع الإسلامي أن يحيد عن القانون مستغلاً بذلك سلطته، حتى في الفترة التي أُقصي فيها أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وابتعدت الخلافة — في اعتقادنا — عن محورها الإلهي الأصيل.. حتى في تلك الفترة يأتي رجل من مصر يشكو إلى الخليفة اعتداء ابن والي مصر آنذاك عمر بن العاص عليه. نعم ابن الوالي لا الوالي نفسه. فيكتب الخليفة إلى الوالي أن يقدّم هو وابنه إلى المدينة. وحين سأل الخليفة ابن الوالي عن سبب ما فعله بالرجل، قال ابن الوالي: وأين شاهدُه؟ قال له الخليفة: كفاه شاهدًا أنه جاء من مصر إلى المدينة ليرفع شكواه. ومن أين له أن يأتي بالشاهد وأنت ضربته في مكان ليس فيه شاهد؟! فأمر الخليفة بجلد الابن ثم أمر بجلد الأب، فرفع عمر بن العاص صوته: لماذا أنا؟ تقولون إن ابني هو الذي ضرب الرجل. فقبل له: إن ابنك استقوى بك، لو لم يكن مدعومًا بمنصبك ما فعل ذلك.. اجلدوه!!

تُرى في هذا المجتمع الذي يدعو إليه الأنبياء من الذي سيهب لمعارضة النبي؟! مجتمع النبوة يدعو إلى توزيع الثروة بعدالة: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وبجانها حق مضيّع» [2]. «راك فلر» [3] استطاع أن يبلغ بثروته الأسطورية هذا الحد لأنه سلب حقوق الآخرين. لو كانت هناك عدالة في التوزيع لما بلغ هذا وأمثاله هذه الدرجة من الثروة.

هذا المجتمع خطوطه الأساسية سيادة العلم والعدل والمساواة ورفض التمييز الاجتماعي والاستغلال وسوء توزيع الثروة والاستبداد، والالتزام بالحق والحقيقة.

حين يأتي النبي إلى المجتمع الجاهلي، ليدعو إلى مجتمع جديد بالخصائص المذكورة، من الطبيعي أن يقف أمامه من يعتاشون على التمييز الطبقي والذين يرون أنفسهم في طبقة عليا والآخرين في طبقة أدنى.

يخشون أن يجعلهم الدين الإلهي متساوين مع سائر أفراد المجتمع، يجعل الأشراف في مستوى العبيد لا فرق بين السيد والمسود. هذه فئة من المعارضين.

والفئة الأخرى هي التي تكس الثروات وتمتص دماء الآخرين وتحتكر التجارة وسائر النشاطات الاقتصادية وتأكل الربا.

وثمة مجموعة أخرى ستعارض وهي فئة الحكام المستبدين لأن «لا إله إلا الله» سوف تجعل «الله» على رأس هرم المجتمع لا فرعون وهامان، ولا نمرود وشداد، ولا معاوية وغيرهم من القوى المستبدة في التاريخ. وهذه فئة أخرى من المعارضين.

والفئة الأخرى من المعارضين هم الأحرار والرهبان. هؤلاء الذين يتعاملون مع الأفكار ويلقنون الناس التعاليم التي تحفظ مكانتهم، إذ لو كانت أفكار الناس وتعاليمهم صحيحة وواعية لما استطاع هؤلاء الرهبان والأحرار أن يحافظوا على مكانتهم وقيادتهم الروحية وما يتبعها من مكاسب مادية.

كانت المواجهة الأولى لعيسى بن مريم مع الرهبان والأحرار. أحرار اليهود هبوا لمعارضة عيسى مع أنهم كانوا على معرفة بهذا النبي.

وفي عصر ظهور الإسلام، مَنْ هؤلاء الذين عارضوا الدعوة النبوية؟ واضح أنهم أولئك الذين لا يبقى لهم مجال خداع الناس، لا يبقى لأمثال كعب الأحرار [4] وعبد الله بن سلام [5] مجال لنشر الخرافات والأكاذيب.

لذلك فإنهم يرون في الدعوة النبوية نهاية لمكانتهم الدينية الزائفة ومكانة القوى السياسية المؤتلفة معهم، فالمجتمع النبوي يقوم على أساس الوعي والعلم واليقظة والحرية الفكرية.. هذا هو المجتمع الإلهي التوحيدي.

وبشأن ائتلاف القوى الدينية المنحرفة مع قوى السلطة لدينا رسالة من الإمام علي بن الحسين السجاد إلى محمد بن شهاب الزهري (وهو نفسه محمد بن مسلم، ومسلم أبوه، وشهاب جدّ والده)، توضّح أن مثل هذا الائتلاف يؤدي إلى تضييع حقوق الناس، جاء فيها: «واعلم أن أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الطالم وسهّلت له طريق الغي بدنوّه منه حين دّنوت، وإجابتك له حين دُعيت» [6]. والرسالة طويلة منقولة بأجمعها في كتاب «تحف العقول».

على أي حال، إحدى المجموعات التي تُرى مذعورة من بعثة النبي زعماء الدين الخرافي، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان. كانوا في زمن إبراهيم(ع) قد حثُّوا نمرود على مواجهة هذا النبي وإلقائه في النار، وهؤلاء في زمن موسى(ع) وقفوا إلى جانب فرعون وأغروه بأن كهانتهم ستبطل سحر موسى!! وفي زمن نبينا(ص) أخذوا في إثارة الإرجاف والتشكيك مما جرَّ إلى واقعة مباحلة نصارى نجران.

من الطبيعي أن تلقى دعوة الأنبياء إقبالا من كل إنسان في المجتمع لانسجامها مع فطرتهم وعقولهم، خاصة وأن الخطاب النبوي يمتاز بالوضوح والبعد عن التعقيد، لكن هذا الإقبال يتعارض مع مصالح الفئة التي تعيش على دفاء جهل الناس وخرافاتهم، لذلك يقفون بوجه الدعوة، وهؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في القرآن ضمن سياق الحديث عن الأبحار والرهبان. إذ لا يمكن أن يحتفظوا بمكانتهم في مجتمع شعَّ عليه وعي الدعوة النبوية، وتحلَّى بالنموِّ الفكري وبالعلم والمعرفة.

إلى هنا تحدثنا عن طبيعة المجتمع الذي يشعُّ فيه نور النبوة. وذكرنا الفئات الأربع التي تعارض هذا التحول في المجتمع. فهي الفئة التي يهملها وجود النظام الطبقي حيث الأشراف والعييد، لأنها ستواجه دعوة إلى حظر التمييز الطبقي وإلى المساواة بين الطبقات العليا والسفلى، وهكذا الفئة التي تكسب الثروات وتحتكر النشاط الاقتصادي، لأنها ستواجه دعوة إلى منع تسلُّط فئة على فئة بعامل الثروة، كما أنها أيضًا فئة المستبدين الذين يمتلكون زمام القدرة المطلقة، أي هم الذين يسميهم المرحوم الميرزا النائيني في كتابه «تنبيه الأمة وتنزيه الملائة» [7] بأنهم يفعلون ما يشاؤون ويحكمون كيف يريدون.

وأيضًا فئة سدنة الدين المزيفِّف، الذين يتسمُّون بالأبحار والرهبان.

هذه الفئات التي ذكرناها وشخصناها بتحليل ذهني ورد ذكرها في القرآن الكريم.

الفئة التي تعيش في كنف الرؤساء والذين بيدهم زمام القدرة والسيطرة ذكرهم القرآن باسم «الملا». والملا من مَلَأَ: أي يملأون العيون. أي الذين يشعر الناس أمامهم بالضعف والهوان.

مَثَلُهُمْ فِي الْمَجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ الْفِرْعَوْنِيِّ مِثْلُ هَامَانَ:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي مَرْوَةً) [8]. هَامَانَ قَرْمٌ حَوْسٌ لَهُ فِرْعَوْنٌ إِلَى رَجُلٍ كَبِيرٍ، إِنَّهُ ذَبَابَةٌ جَعَلَ مِنْهَا فِرْعَوْنٌ نَسْرًا. وَمَثَلُهُمْ فِي دَائِرَةِ مَعَاوِيَةَ كَمِثْلِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ [9] وَزِيَادِ بْنِ

أبيه [10]، هؤلاء من الملأ الذين زينوا لمعاوية أعماله، وصوروا له أن الدنيا طوع يديه، وكل الناس له منصاعون.

وعبر القرآن عن طبقة الأشراف بالمترفين، وهم الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش. وهؤلاء أول من يعارض الدعوة النبوية.

وسدنة الأفكار المنحرفة هم الذين ذكرهم القرآن الكريم في قوله سبحانه: (إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَعْيَانِ وَالرُّسُلِ هَادِيَانٍ...) [11].

وقد يكون «الطاغوت» يعني فيما يعني القوة المستبدة في المجتمع. والطاغوت كلمة عامة من الطغيان، وهي كل قوة تطغى أمام الله سبحانه، وقد تكون زَافْسُ الإنسان طاغوته، وفي الحديث: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» [12]. وقد يكون الطاغوت هَوَى الإنسان، وقد يكون زوج الإنسان وأبناءه. غير أن ما ورد في القرآن الكريم بشأن المكانة الفاعلة المؤثرة للطاغوت في المجتمع يدل على أنه أكبر منصب في النظام الجاهلي: (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) [13] وفي موضع آخر يقول سبحانه: (إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ مِّنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النَّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءَ لَهُمْ) [14]. هذه وغيرها من الآيات يمكن أن نفهم منها أن الطاغوت هو القوة الاستبدادية المسيطرة.

هذه الفئات الأربع هي فئات معارضة للأنبياء في تاريخ النبوة. أيما انبثقت دعوة للالتزام بأنبياء الله وكتبه، تهب هذه الفئات متزامنة أو متعاقبة لمواجهة الدعوة، وهذا ما تؤكد عليه الآيات الكريمة التي نقف عندها [15]:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) و«كذلك» تعني أن ما تواجهه من عدااء يا محمد هو ما واجهه قبلك من الأنبياء، إذ عاداهم شياطين الإنس والجن، أي مَرَدَةُ الإنس والجن. والشيطان كما ذكرنا من قبل هو القوة الشريرة خارج وجود الإنسان. ومن نوعه إبليس الذي تمرّد وأبى السجود لآدم. والشياطين كثيرون، لكن اللعنة تتوجه عادة إلى إبليس، مع أن هناك من الشياطين من هم أساتذة إبليس في الشرارة!!

(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) هؤلاء يُلْهِمُهُمْ بعضهم البعض الآخر.

أحيانًا طبقة الأحرار والرهبان يوحون إلى طبقة المملأ، وأحيانًا طبقة المملأ توحى إلى فئة الأحرار والرهبان، وأحيانًا المترفون يوحون للفتتين، وغالبًا ما تستلهم هذه الفئات الثلاث من الطاغوت.

(زُخْرُفَ الْقَوْلِ) الأحاديث المزيفة والأباطيل الخادعة. وسأتحدث عن هذه الأحاديث المزيفة عندما نتناول موضوع النبوة. فرعون يدعي أنه يريد أن يقتل موسى ليحافظ على دين الناس!! (ذَرُّونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) هذا هو زخرف القول. يخاف فرعون أن يخرّب موسى دين الناس ويفسد في الأرض!!

يقول ذلك عن غرور، أي لخداع الناس وتجهيلهم.

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ) هكذا شاء الله أن يعلن هؤلاء عداؤهم كي يتبين المؤمن من غير المؤمن. وهي سنة الابتلاء في هذه الدنيا، (فَذَرَّهُمْ) وما يفتترونها) فتركهم وافتراءاتهم، فإنهم لن يضرّوك شيئًا، فلا تحزن ولا تتوان في مسيرتك.

(وَلَتَتَمَّغَىٰ إِلَيْهِمْ أَفْئِدَةٌ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) وليدبر ضؤوه وليدقق ترفؤوا ما هم مققترؤون [16]. هذا الزخرف من القول وهذا الغرور والخداع لا يؤثر إلا في قلوب المنحرفين الذين لا يؤمنون بالآخرة، إذ تجد هذه القلوب في هذا الزخرف ما يرضيها، وليستطيع هؤلاء المنحرفون أن يرتكبوا من الآثام ما يريدون.

وفي سورة المؤمن (غافر) نقرأ هذه الآيات [17]: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مَّبِينٍ) بالآيات والمعجزات الواضحات. بالمنطق القوي، وبعماءه وبده البيضاء. وهي دلائل يجب أن يتقبلها كل إنسان. إلى من أرسل الله موسى؟

(إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) إلى فرعون وإلى هامان وزير فرعون، وإلى قارون صاحب الكنوز والأموال. لم يكن قارون صاحب سلطة، لكن النبي أرسل لمحاربتة كما يحارب فرعون وهامان. وجريمته أنه كدس الثروات العامة وحبسها عمّن يحتاجها.

فرعون رأس السلطة وينتمي إلى طبقة معينة وهامان ينتمي إلى طبقة أخرى، وقارون لا علاقة له بهما، كان يكنز الأموال لا غير، لكن جواب الثلاثة واحد وهو أن موسى ساحر في معجزاته كذاب في دعوته!!

(فَلَمَّآ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا) وحين واجه موسى هؤلاء المعارضين بالحقيقة، لم يرضخوا لها ولم يسكتوا أمامها، بل واجهوه بموقف أعنف: (قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ) اقتلوا شباهم الذين اتبعوا موسى وآمنوا به، اقتلوا هؤلاء الذين آمنوا بهذا الفكر الجديد الإحيائي، كي لا يهدّوا مستقبلنا ولكي لا تنقذ منهم شرارة تبعث على النهوض. أما النساء فاستبقوها حيّة، ربّما لكي تختلط الأنساب، أو لإشباع الشهوات، أو للخدمة والسخرة.

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) كل هذه الدسائس التي يديرها الكافرون لا تحقق هدفها. إنها مثل سهم يوجه نحو هدف، ثم تهبّ عليه عاصفة تبعده عن هدفه. إن عاصفة السنن الإلهية ستجعل كيد الكافرين تصلّ الطريق.

كما تلاحظون، الآية تذكر طبقة فرعون وطبقة هامان وطبقة قارون وتذكر موقف موسى منهم وموقفهم من موسى، ثم تذكر نتيجة المواجهة.

وآية أخرى تذكر المترفين، وهي خاصة بطبقة قارون:

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) [18] وما هو دليلهم على إنكار الرسالة؟:

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) انظروا إلى السطحية والغرور في الاستدلال.

وآية أخرى في سورة التوبة [19] ضمن هذا السياق ترتبط بطبقة الأحرار والرهبان. يقول سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا كَثِيرٌ مِّنَ الْأَعْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبِاطِلِ) بدون استحقاق. (وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) لا يكتفون بأكل أموال الناس بل أيضًا يصدونهم عن سبيل الله.

ثم تأتي الآية على جماعة المترفين وأصحاب الثروات الطائلة:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

وفي هذه الآية أيضًا وفي آيات أخرى نرى ذكرًا لهذه الفئات الأربع وعدائها لدعوة الأنبياء.

والحمد لله رب العالمين.

[1] – تحف العقول، باب ماروي عن أمير المؤمنين، رسالة الإمام إلى مالك الأشتر.

[2] – الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، على هامة التاريخ.

[3] – من كبار الرأسماليين الأمريكيين، وكان له بالتعاون مع الكيان الصهيوني دور في الأحداث السياسية العالمية.

[4] – أبو إسحاق كعب بن مانع الحميري، من علماء اليهود، واشتهر باسم كعب الأحبار، أسلم في زمن الخليفة الثاني، ودخل المدينة، رويت عنه ما ادعى أنه ينقله من التوراة، وسميت تلك الروايات بالاسرائيليات.

[5] – عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، من أحبار يهود بني قينقاع، أسلم، وكان مقربًا من الخليفة الثاني ثم من معاوية، وهو من عوامل انحراف الجهاز الحاكم في المجتمع الإسلامي.

[6] – تحف العقول، من كلام الإمام علي بن الحسين لمحمد بن مسلم الزهري.

[7] – محمد حسين النائيني (1277 - 1355هـ)، ولد في مدينة نائين الإيرانية. ورحل إلى النجف الأشرف وتلمذ على كبار علمائها، وأعلن تأييده للثورة الدستورية في إيران بكتابه المذكور أعلاه، ووقف ضمن من وقف من العلماء بوجه الاستعمار البريطاني في العراق، يذكر أنه في الكتاب المذكور استفاد من آراء عبدالرحمن الكواكبي الحلبي التبريزي.

[8] – المؤمن/ 36

[9] – المغيرة بن شعبة من أهل الطائف، قدم المدينة في السنة الخامسة للهجرة، كان من أصحاب

السقيفة، واتصل بمعاوية، واقترح عليه أن يولي يزيد ولاية العهد.

[10] – زياد بن أبيه، أمه سمية، ولا يعرف أبوه، في زمن الخليفة الثاني ادعى أبو سفيان أن زياداً ابنه، استماله معاوية بادعائه أنه أخاه، وبعد صلح الحسن تولى حكومة البصرة والكوفة، ابنه عبید
□ قاتل الحسين بن علي.

[11] – التوبة / 34

[12] – البحار الأنوار، كتاب الايمان و الكفر، ابواب مكارم الاخلاق، باب مراتب النفس، ح 1

[13] – النساء / 76

[14] – البقرة / 257

[15] – الأنعام / 112 - 113

[16] – المؤمن / 26

[17] – المؤمن / 23 - 25

[18] – السبأ / 34 - 35

[19] – التوبة / 34